اسهام في دراسة الجامع الاموي بدمشق

- ٢ -

صحن الجامع [1]

الأستاذ عبد القادر الريحاوي

تناول عدد من علماء الآثار الجامع الأموي بالدراسة والبحث العلمي ، فوضع بعضهم بحثاً أثرياً شاملاً لتاريخ الجامع وخصائصه المعمارية والفنية ، واكتفى البعض بدراسة جانب من جوانبه أو عنصر من عناصره . نذكر منهم فاتزنكر ودوسو ولامانس وسوفاجه وماكس فانبرشيم ومارغريت فانبرشيم وكريزويل ودولوريه وغيرهم .. ولكن أهم هذه الدراسات الأثرية جميعها هي التي وضعها العالم الانجليزي كريزويل [2] .

ومع هذا كله فان هذه الآبدة العظيمة ما تزال تنتظر مزيداً من البحث والدراسة وتأليف المجلدات عن تاريخها الطويل وعما مر عليها من أحداث وما تضمه من عمارة وصناعة .

وليس غرضي من هذه الأبحاث القصيرة التي أكتبها من حين لآخر أن أعيد وأردد ما كتبه هؤلاء وانما لأتناول ما فاتهم ذكره ودراسته ، أو لأعرض ما توفر لدي من معلومات تتيحها لي الأعمال التي تجري من حين لآخر في أرجاء هذا البناء الواسع والنصوص التي أقع عليها

---

(١) تناولنا في بحث سابق فسيفساء الجامع الأموي . انظر الحوليات الأثرية السورية المجلد العاشر . عام ١٩٦١ .

(٢) Early muslim architecture. Vol. I. Ocsford. 1932

في بطون المراجع القديمة ، مما يوضح ناحية غامضة أو يصحح رأياً خاطئاً أخذ من قبل على الظنة . ولعل في هذه الأبحاث فائدة لمن يريد الانكباب على دراسة هذه الآبدة ومعرفة كل صغيرة وكبيرة عنها . وقد لا يكون ما سأقرره أو أجتهد في تفسيره صواباً كله ، ولكني على كل حال أضع أمام الباحثين جديداً من المعلومات والآراء ولهم أن يقبلوها أو يقوموها ، حتى يكتب لها البقاء والشيوع .

وليكن هذا البحث الآن خاصاً بصحن الجامع وحده ، وندرس فيه ناحيتين الأولى البلاط وما طرأ عليه من تطور والثانية قبة الساعات الكائنة في شرقي الصحن بمناسبة ترميمها واظهار معالمها مجدداً بعد أن ظلت عدة قرون محجوبة عن الأنظار .

١ — البلاط : سويته ونوعه

لم أجد بين الذين وضعوا دراسات عن الجامع الأموي من تعرض إلى بلاط الجامع من حيث تاريخه ونوعه وسويته الأصلية ، ومما جعلني أبادر لدراسة هذه الناحية وجود مشروع لدى وزارة الأوقاف لاصلاح جانب من بلاط الصحن وأروقته بعد أن تكسرت أحجاره وتشعثت ، وبدت في وضع لايمت إلى الأصل القديم بصلة ، وطرأ على الأروقة أيضاً تغير زاد في ارتفاعها وبدا هذا الارتفاع غير منسجم ولا متناسب ، واختفت بسبب ذلك قواعد الأعمدة وأحيطت الأروقة من ناحية الصحن بجلسة من الأحجار البيضاء والسوداء لتغطية الارتفاع الطارىء الذي يتراوح مابين الأربعين والعشرين سنتمتراً . وأصبحت عتبة باب المشهد المفتوح في الرواق الغربي تنخفض أربعين سنتمتراً (الصورة رقم ١) .

أما الصحن فقد ارتفعت سويته أيضاً وتغيرت بارتفاعها النسب الهندسية للمنشآت القائمة فيه كقبة الخزنة والقبة الشرقية ، واختفى البلاط القديم وحل محله بلاط صغير القطع من الحجر المزي [١] مرصوف على هيئة مداميك متوازية . وفي مكان وسط الصحن تشاهد رقعتان من البلاط الجميل تمتدان على طرفي البحرة الشمالي والجنوبي على مساحة قدرها ٤٥ متراً مربعاً فقط وتتألف كل منها كما يبدو من (الصورة رقم ٢) من شكل هندسي فيه دوائر وأنصاف دوائر من

(١) هو حجر كلسي مائل إلى الاحمرار قليلاً كانت مقالعه في الأصل من جبل المزة .

الحجر المزي المطوقة باطارات من الحجر الأحمر السماقي ولا شك أن هاتين الرقعتين أقدم من البلاط الحالي ، والأسلوب الذي صنعتا به يجعلهما شبيهتين ببلاط دار بيزنطية أموية اكتشفت مؤخراً في منطقة الحريقة بدمشق . وكذلك ببلاط بعض المدارس الأيوبية والمملوكيه في دمشق (البادرائية والخضيرية) فهما إذاً اما أن تكونا من بقايا البلاط القديم أعيد رصفه عند تجديده أو انهما نقلتا من بناء قديم آخر .

والسبب في هذا التغير هو ما أصاب الجامع خلال تاريخه الطويل من حرائق عديدة وزلازل عنيفة ، تغيرت من جرائها معالم الصحن وارتفعت سوية بلاطه وجدد مرات كان آخرها عام ١٨٨٣ أي قبل الحريق الأخير بعشر سنين .

واعتمدنا في دراستنا لحقيقة البلاط على ناحيتين الأولى تحري المراجع القديمة والثانية اجراء أسبار في أماكن متفرقه في الصحن والأروقة ، وتوصلنا بالنتيجة إلى معلومات أولية لكنها على جانب من الأهمية نوضحها فيما يلي :

الاسبار آ . ب . ج

بمناسبة ترميم القبة الشرقية ، التي سنفرد لها جانباً خاصاً من هذا المقال ، قمنا باجراء ثلاثة أسبار في الصحن أحدها داخل القبة والآخران في أطرافها (الشكل رقم ٣) وحصلنا من هذه الأسبار على الطبقات القديمة التالية :

الطبقة الاولى : بلاط من الآجر ظهر في السبرين (ب) و (ج) على عمق يتراوح بين ٣٥ و ٣٧ سم ، نرجعها مبدئياً إلى ماقبل عام ١٢٣٤ هـ ١٨٧٨ م وذلك لأن الجدار العثماني الذي كان يغلف القبة والذي شيد في التاريخ المتقدم الذكر كان قد بني فوق هذه الطبقة مباشرة .

الطبقة الثانية : بلاط من الحجر الابيض (العواميدي) والرخام الابيض على عمق ٥٢ سم ويأتي تحت قاعدة القبة مباشرة . ولما كانت هذه القاعدة قد بنيت في عام ٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م كما سنرى وأنه لم يطرأ حتى هذا التاريخ على الصحن أي تجديد . فاننا نستطيع اعتبار هذه الطبقة هي السوية الأموية الأصلية للصحن .

الطبقة الثالثة : شاهدناها في الأسبار الثلاثه وعلى عمق يتراوح بين ٧٥ و ٨٠ سم وتتألف من بلاط كبير الحجم أكثر سماكة من بلاط الطبقة الأولى (١٢ سم) وهو من النوع المعروف

بالعواميدي . ونعتقد بأن هـذه الطبقة هي سوية المعبد القديم كما كان في العهدين الروماني والبيزنطي . هذا وقد ظهرت تحت هـذا البلاط مباشرة في السبر (آ) قناة مبنية بالآجر عرضها ٨٠ سم وعمقها ٩٥ سم . وقمنا بعـد ذلك باجراء أسبار مكملة في مناطق أخرى في الشرق والغرب من الصحن للتثبت من المعلومات التي توصلنا اليها .

السبر (د)

اخترنا مكانه بالقرب من الرواق الشرقي وحصلنا منه على المعلومات التالية :

الطبقة الأولى : ظهر بلاط من الآجر على عمق ٣٨ سم ، قياس البلاطة (١٥ × ١٦ سم) وهذة الطبقة تساير طبقة الآجر المكتشفة في الأسبار الأولى .

الطبقة الثانية : وكانت على عمق ٨٣ سم وتتألف من بلاط عواميدي من مقياس كبير . البلاطات مربعة تقريباً (٨٠ × ٩٠ سم) و (٨٠ × ٩٥ سم) وهذه الطبقة تساير الطبقة الثالثة في الأسبار الأولى من حيث نوع البلاط وسويته ، وهو من النوع المشاهد في أبنية العصرين الروماني والبيزنطي (الصورة رقم ٤) .

أما الطبقة الأموية فمفقودة هنا ويجب ان تكون بين الطبقتين المتقدمتين .

السبر (هـ)

ومكانه في الجزء الشمالي الغربي من الصحن بين قبة الخزنة والرواق الشمالي ، وقد عثر فيه على طبقة واحدة على عمق يتراوح بين ٤٨ و ٥٧ سم ، وتتألف من حصيرة من الفسيفساء ظهر منها ما يقرب من ثلاثين متراً مربعاً . وكانت فصوصها من الحجر الأبيض كبيرة الحجم ٢٫٥ سم (الصورة رقم ٥) .

يلاحظ بأن هذه الرقعة من الفسيفساء محاطة باطار من نفس النوع تحده أحجار بناء ضخمة غير منحوتة ولا يمكن اعتبارها بلاطاً والأغلب أنها أساس لبناء قديم كان مبلطاً بالفسيفساء وهي من النوع البيزنطي البسيط .

السبر (و)

ومكانه بحذاء الرواق الغربي . ظهرت في أماكن عديدة من هذا المكان أجزاء من بلاط

قديم متقن الرصف كبير القطع يختلف في مظهره عن البلاط الروماني والبيزنطي . وهو أعلى من سوية الفسيفساء البيزنطية التي تحدثنا عنها في السبر المتقدم بحوالي ثلاثين سنتيمتراً ويأتي تحت البلاط الحالي مباشرة على عمق عشر سنتمترات وينسجم وضعه مع وضع قواعد أعمدة الرواق مما يحملنا إلى الاعتقاد بأنه البلاط الأموي . ولكن كيف نفسر اختلاف السوية بينه وبين الطبقة الأموية التي رأيناها في الأسبار الأولى التي ظهرت على عمق ٥٢ سم ، نقول أن الصحن كان ينحدر انحداراً خفيفاً من الغرب إلى الشرق من أجل تصريف المياه ثم اختفى هذا الانحدار خلال أعمال الترميم العديدة التي جرت على البلاط فارتفع الجانب الشرقي أكثر من الجانب الغربي وانعدم الانحدار القديم . ووضعت حلول أخرى من أجل تصريف المياه تعتمد على المنحدرات العرضانية التي يتألف منها مجريان يمتدان من الشرق إلى الغرب .

وقد أكدت الدراسات الطبوغرافية على الصحن صحة ذلك .

اسبار الرواق الغربي

يرتفع الرواق في الوقت الحاضر عن الصحن ما يقرب من ٤٠ سم ، ويغطي هذا الانتقال جلسة أو وزرة محدثة من الحجر الأبيض والأسود (الصورة رقم ١) ويفصل بينها وبين الصحن شعيرة او عتبة من الحجر الكتيت تصل بين أعمدة الرواق وترتفع عن الصحن حوالي ١٠ سم والرواق الحالي مرصوف بأحجار صغيرة القطع من النوع المعروف باللاطون ، نعتقد أنها من أواخر القرن التاسع عشر أيضاً . وينحدر تدريجياً باتجاه الصحن .

وقد دلت الأسبار على وجود طبقة رئيسية على عمق يتراوح بين ٤٩ و ٥٤ وذلك بالنسبة لتغير مستوى الرواق الحالي من مكان لآخر تتألف من عدسة (١) اسمنتية تخللتها رقعة من الفسيفساء فصوصها من الحجر الأبيض قياس (٢ سم٢) ، وكسر من الرخام الأبيض المرصوف بغير انتظام في مكان آخر (الصورتين رقم ٦) ولم يعثر تحت هذه الطبقة على غير الردم الذي استمر حتى عمق مترين ، الا أننا عثرنا بحذاء الجدار الداخلي على عدة بلاطات من الحجر عمقها ٢٣٫٥ سم وفوق هذه البلاطات تبدأ كسوة الجدار الرخامية المؤلفة من الألوان الأبيض

---

(١) العدسة هي الأرض المصنوعة من اللاط الصقيل ، وهي اصطلاح محلي .

والأسود والأحمر ، ظهرت منها قطع ما تزال ملصقة بالجدار ، إلا أن حافاتها العليا كانت مكسرة مما يدل على أنها كانت تمتد إلى الأعلى عدة أمتار أي إلى محاذاة الفسيفساء الجدارية. وكانت هذه الكسوة الرخامية ملصقة بواسطة مونة سميكة (٥ سم) تليها طبقة من كلسة رقيقة (١٠ سم) كانت تمتـد إلى مسافة أعمق من الكسوة الرخامية وحتى تلتقي بأرض الرواق الأساسية . بينما عثرنا على قطع أخرى من الرخام ارتفاعها ٢٥ سم ، كانت تمتد إلى مسافة أكثر عمقاً أي حتى مسافة ٦٥ سم من السوية الحالية (الشكل رقم ٧) .

ولا بأس أن نشير هنا بأن المدماك الأول للجدار ويبلغ ارتفاعه حوالي ٨٠ سم كان يختفي أكثره تحت سوية البلاط الحالي .

اسبار الرواق الشمالي

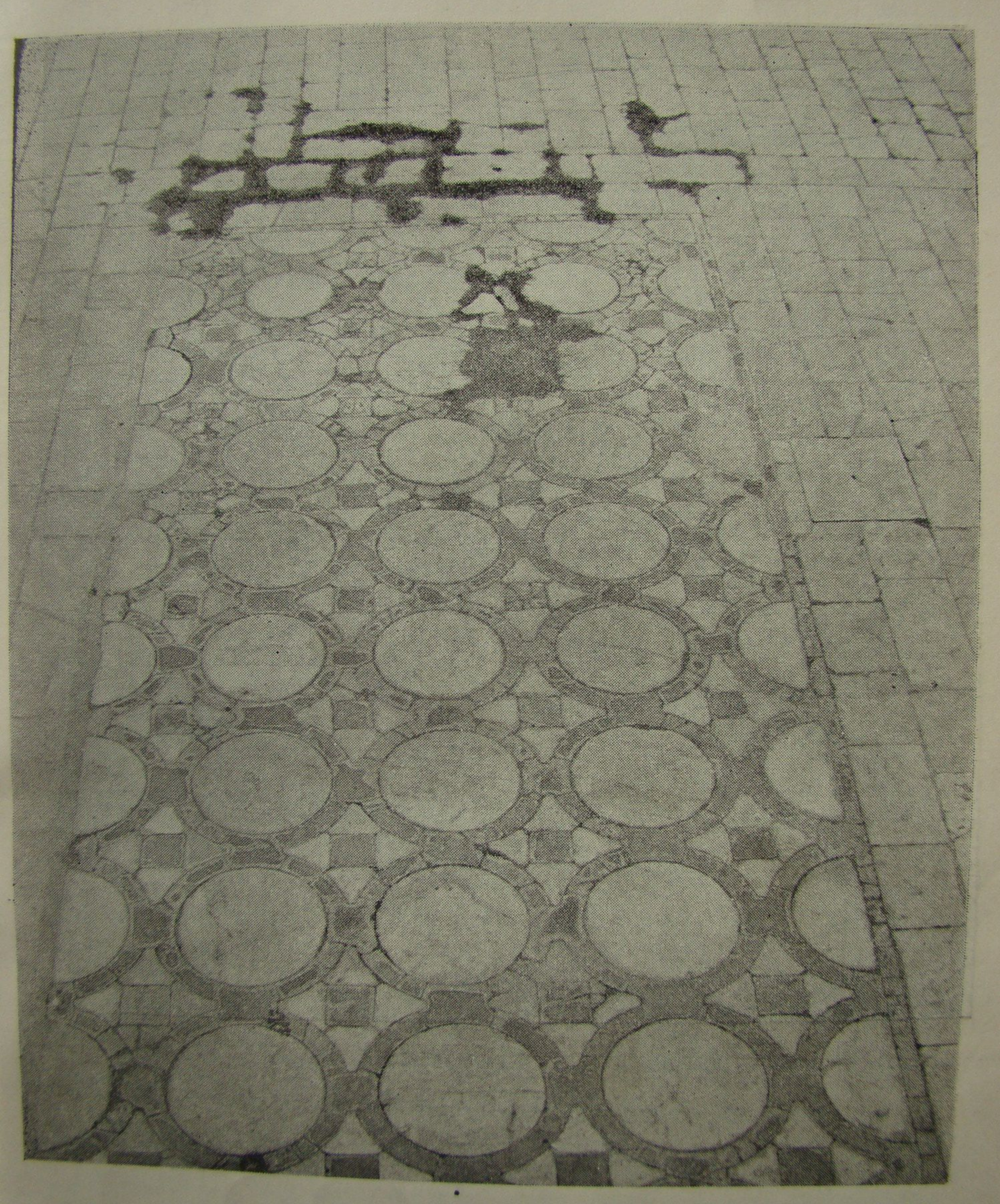
ظهرت في هذه الأسبار طبقتان ظاهرتان تحت سوية البلاط الحالي . الأولى على عمق ٢٠ سم وتتألف من الآجر والثانية على عمق ٤٠ سم وتتألف من عدسة حمراء . كما ظهرت كلسة جدارية ما تزال تغطي جانباً من المدماك الأول . فاذا لاحظنا أن مستوى الرواق الحالي هنا أقل ارتفاعاً من الرواق الغربي بما يعادل عشر سنتمترات نتوصل إلى القول بأن الطبقتين اللتين عثرنا عليهما تسايران في سويتهما الطبقتين اللتين تقدم ذكرهما في الرواق الغربي .

سبر في الرواق الشرقي

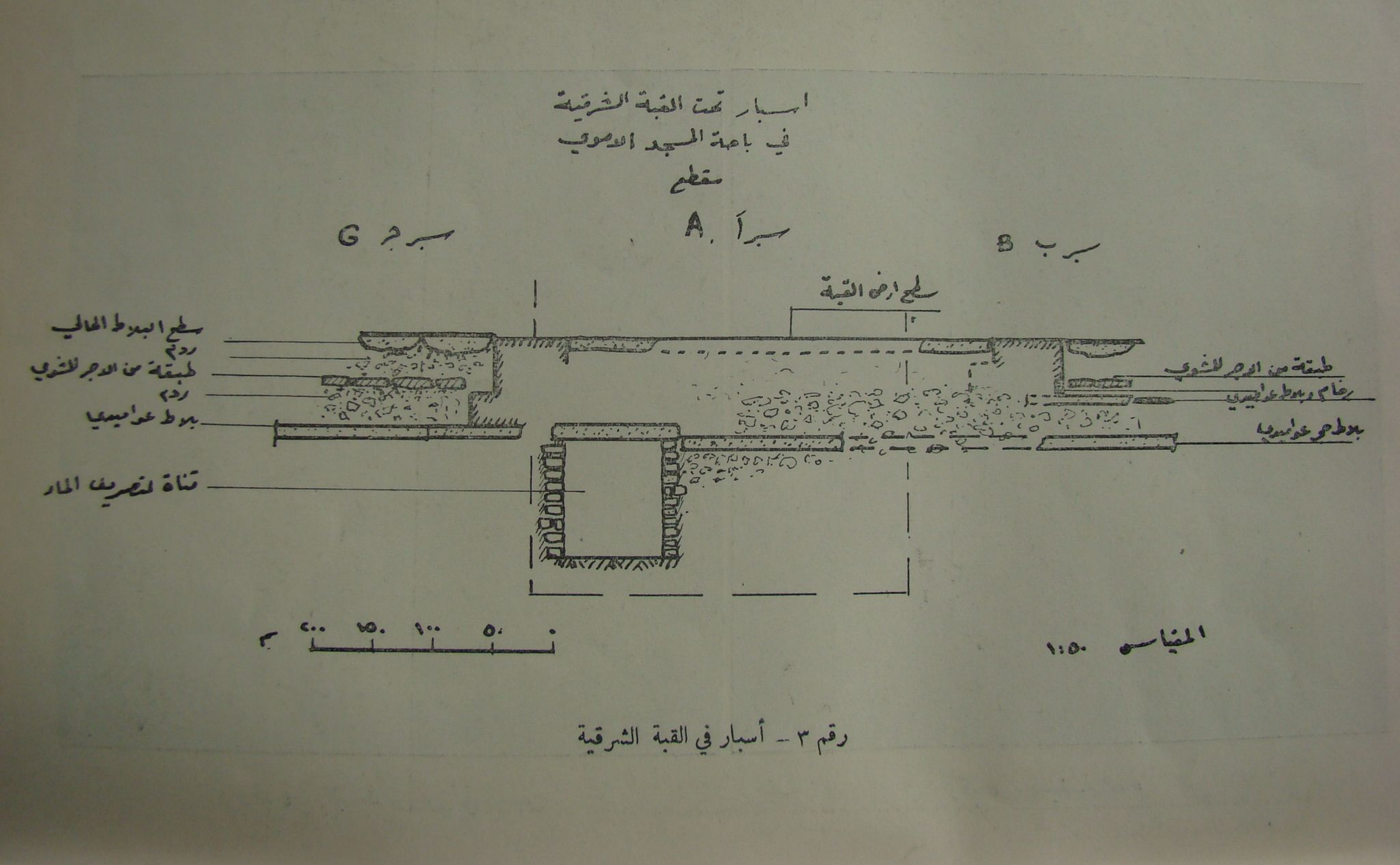
في سبر واحد أجريناه في هذا الرواق قرب مدخل مشهد الحسين عمقه أربعة أمتار عثرنا على طبقتين من العدسة الأولى على عمق ٤٦ سم من سوية أرض الرواق الحالية والثانية على عمق ٩٧ سم واستمر الردم بعد ذلك حتى المترين . ونستطيع القول بأن الطبقة الأولى المؤلفة من عدسة كلس وقصرمل تساير الطبقة الثانية في الرواقين الشمالي والغربي التي مر ذكرها أما الطبقة الأخرى الأكثر عمقاً فهي وحيدة من نوعها ولم نعثر على ما يسايرها في الأروقة الأخرى ولا شك أنها من عصر ما قبل الاسلام .



رقم ١ — الرواق الغربي قبل كشف أرضه الحالية



رقم ٢ – رقعة مزخرفة من بلاط الصحن



رقم ٣ - أسبار في القبة الشرقية



رقم ٤ — البلاط الروماني في الصحن

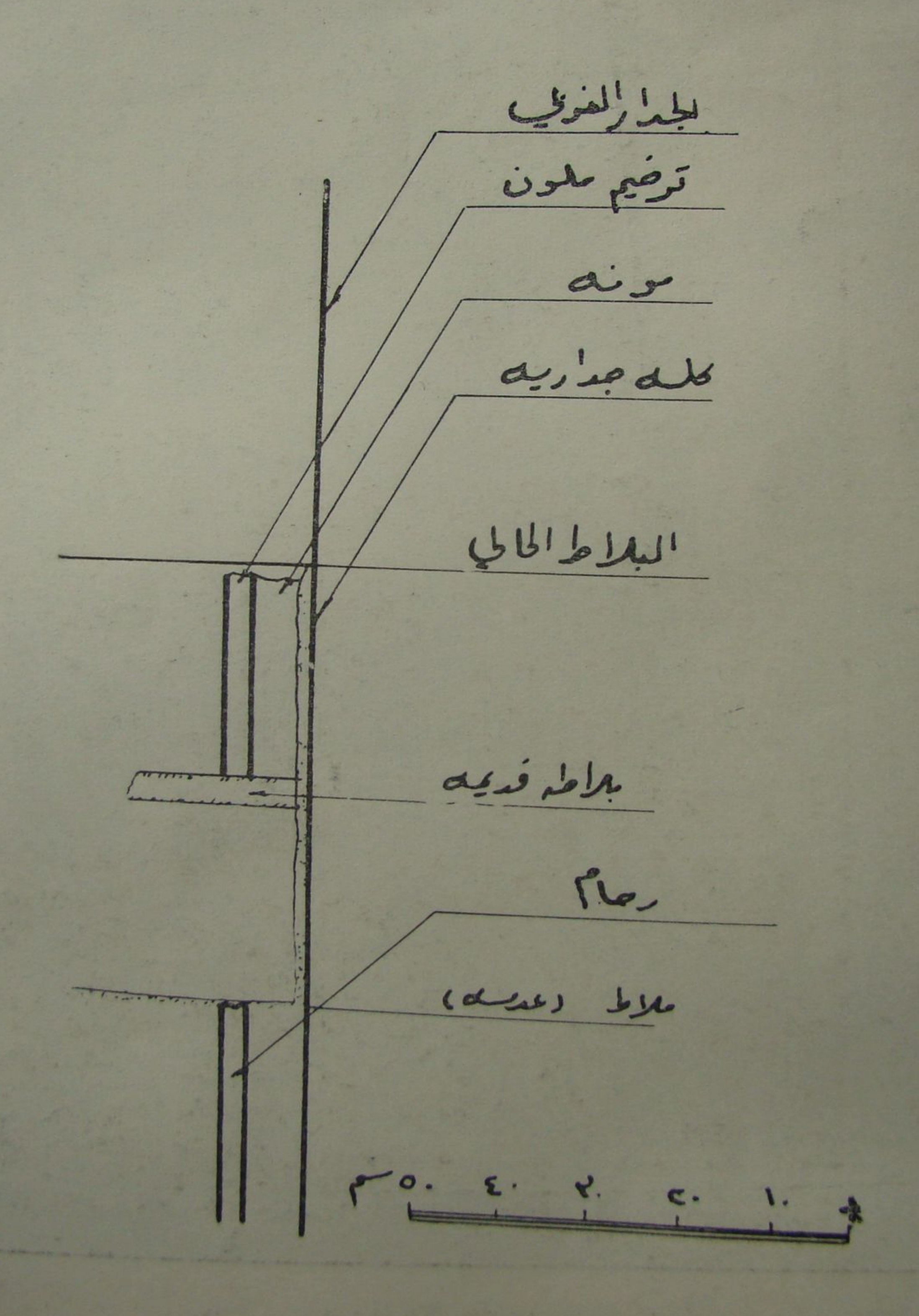
رقم ٥ — فسيفساء الصحن



رقم ٦ — فسيفساء الرواق الغربي



رقم ٦ مكرر – أرض الرواق الغربي بعد كشفها



رقم ٧ — سبر في الرواق الغربي



رقم ٨ — قبة الخزنة

النصوص التاريخية

ننتقل الآن إلى النصوص التاريخيه لنر ماذا نجد لديها من أيضاحات حول بلاط الجامع ونوعه وما طرأ عليه من ترميم واصلاح ، ولنسع للتوفيق بين معطيات السبور التي تكلمنا عنها وبين ماتوفر لدينا من نصوص .

إن أقدم وصف للجامع الأموي لايرقى إلى أبعد من القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي) والذي يهمنا هنا من هذا الوصف هو ماذكره المؤرخون والرحالة عن بلاط الجامع .

١) قال المقدسي المتوفي عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م : « ثم بلط جميعه بالرخام الأبيض »[١] .

٢) وقال ابن حوقل وهو معاصر للمقدسي توفي بعيد سنه ٣٦٧ ق : « أن الوليد جعل أرض الجامع رخاماً مفروشاً »[٢] .

٣) وقال الحسن المهلبي المتوفي سنة ٣٨٠ هـ في كتابه المسالك والممالك : « وأرض صحنه كلها مفروشة بالمرمر الأبيض »[٣] .

٤) وقال الاصطخري وهو جغرافي من القرن الرابع أيضاً : « فجعل أرضه رخاماً وجعل وجه جدرانه مجزعاً »[٤] .

٥) ويقول اليعقوبي من القرن الثالث الهجري : « فرشه بالرخام الأبيض المختم بالأزرق »[٥] .

إلا أن مؤرخاً متأخراً من القرن الثامن الهجري هو ابن كثير يأتينا بوصف جديد فيقول في سياق حديثة عن أول حريق للجامع حدث عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م : « وتقلعت الفسيفساء التي كانت في أرضه وعلى جدرانه ... وأرضه كلها بالفصوص ليس فيها بلاط ، ثم لما وقع الحريق تبدل الحال »[٦] وهنا تأكيد صريح إلى وجود الفسيفساء . ولكننا نرجح أن ابن

---

(١) كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . طبعة ليدن سنة ١٩٠٩ ، ص ١٥٧ .

(٢) من خطط الشام . كرد علي ١٧٥/٥ .

(٣) قطعة من مخطوط نشرها صلاح الدين المنجد في مجلة معهد المخطوطات – الجزء الأول لعام ١٩٥٨ .

(٤) كتاب الأقاليم – طبعة غوته ، ١٨٣٩ ، ص ٣٣ .

(٥) من كتاب نزهة الأنام في محاسن الشام – ابو البقاء الدمشقي من القرن التاسع الهجري طبعة القاهرة عام ١٣٤١ هـ ، ص ٥١ .

(٦) البداية والنهاية ، ٩٧/١٢ – طبعة السعادة بمصر ، ١٩٣٢ .

كثير يتحدث عن الحرم وليس عن الصحن لأنه يطلق تعبير الجامع على الحرم . ومع ذلك فهو أول من أشار إلى وجود الفسيفساء في الحرم وربما لأنه كان مغطى بالحصر أو البسط كما جاء وصفهم عاماً سوى المهلبي الذي ذكر الصحن صراحة في حديثه عن البلاط .

وقد أجمع المؤرخون إلى أن أول اصلاح طرأ على البلاط كان فى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أيام الملك العادل محمد أبي بكر الأيوبي .

قال أبو شامة المتوفى عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م : « في سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م في شعبان هدموا قنطرة الباب الشرقي الرومية لتنشر حجارتها بلاطاً لصحن الجـامع ، وفرغ منه في رمضان سنة ٦٠٤ » . ثم يقول : وفي سنة ٦١١ شرع في تبليط رواقات الجامع الداخلية (يقصد الحرم) وكانت أرض الجامع كلها قد تكسر رخامها »[١] واكتمل البلاط عام ٦١٤ حيث يقول : « وحضر المعتمد لطرح البلاطة الخاتمة بيده » .

يجب أن نلاحظ في هـذا النص شيئين ، الأول أن أبا شامة وهو أقدم من ابن كثير ومرجع له لايشير إلى وجود الفسيفساء وانما يذكر الرخام فيقول : قد تكسر رخـامه فهل يعني به الفسيفساء الرخامية .

والشيء الثاني هو أن الحجر الذي استعمل لتبليط الصحن في أوائل القرن السابع الهجري يجب أن يكون من النوع العواميدي القديم ولعـل أبا شامـة يقصد بالبـاب الشرقي باب المدينة الشرقي والقنطـرة هي فتحة الباب الوسطى التي وجدت مهدومة ويجري اعادة بنائها في هذه الأيام .

وروى المؤرخ ابن شداد المتوفي سنة ٦٨٤ حادثة اصلاح البلاط في أيام الملك العادل فقال : « تبليط الصحن الخارجي سنة ٦٠٦ هـ وتبليط الأروقة الجوانية (يقصد الحرم) سنة ٦٠٧ »[٢] فاختلف مع أبي شامة في التاريخ فقط .

وقال ابن كثير أيضاً في حوادث سنـة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م : « تكامل اصلاح بلاط الجامع الأموي »[٣] .

---

(١) تراجم رجال القرنين السادس والسابع . طبعة دار الكتب بالقاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٥٤ و ٨٦ و ١٠٠ .
(٢) الأعلاق الخطيرة – تحقيق سامي الدهان ص ٧٧ .
(٣) البداية والنهاية ٢٥٣/١٤ .

فهل نفهم من جملة ابن كثير اشارة إلى إصلاح آخر جرى على البلاط ، أم أن الإصلاح الأول الذي تم في عهد الملك العادل تكامل فى هذا العام اننا نبين الفكرة الأخيرة لأن في قول أبي شامة الذي نقله ابن كثير أيضاً تصريح واضح إلى أن عملية الإصلاح التي جرت في مطلع القرن السابع تكاملت بعد عدة سنوات لأنه يذكر بدقة تاريخ البدء والانتهاء لكل من الحرم والصحن كما رأينا ، فلا بد إذاً من أن تكون هناك عملية إصلاح جديدة جرت في منتصف القرن الثامن ولعل السبب في ذلك ماحدث للجامع من أحداث خربت بلاطه الأيوبي أو جانباً منه . ومن هذه الأحداث دخول التتار عام ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م واحتلالهم الجامع واتخاذ صحنه مقراً للمجانيق لرمي القلعة منه ، ومنها أيضاً حريق عام ٧٤٠ هـ /١٣٣٩ م وعدد من الزلازل .

وأخيراً هناك مؤرخ من أهالي دمشق هو ابن فضل الله العمري المتوفي عام ٧١٧هـ/١٣١٧م وصف الجامع الأموي وصفاً دقيقاً فقال عن بلاطه :

« وقد فرش المسجد بالمرمر ومقطعه من جبل المزة » [١] لنمعن النظر في هـذا القول الذي يلفت انتباهنا إلى عدة أمور .

أولها اننا ننكر أن تكون في جبال المزة مقالع للمرمر كما أن الحجر المعروف بالمزي اليوم لاوجود له في المزة وهو مستعمل في الأبنية القديمة وفي بلاط الجامع الحالي وهو حجر صخري مشبع بقليل من الحمرة وليس رخاماً .

ومعنى ذلك أن العمري يطلق اسم المرمر على هذا النوع من الحجر .

ولكنه يعرّف الرخـام في مكان آخر فيقول : فقد اجمعت الحكماء على أن الرخام هو الأبيض ، فأما الملون فـكله حجارة ، والناس تطلق على كل ذلك اسم الرخام [٢] . ومن هنـا نفهم أن المرمر في عرف العمري هو غير الرخام الأبيض المعروف ، ولا شك أن المرمر الذي شاهده هو البلاط الأيوبي وليس البلاط القديم الأموي خاصة وأن أكثر النصوص القديمـة التي وصفت البلاط الأموي ورد فيها تعبير الرخام .

---

(١) مسالك الأبصار ـ تحقيق أحمد زكي باشا ـ طبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٢٤ ، ص ١/١٩٥ .
(٢) مسالك الأبصار ١/١٨٥ .

ونستخلص من كل ما تقدم النتائج التالية :

١ ــ كانت أرض المعبد قبل الإسلام مرصوفة ببلاط من الحجر الكلسي العراميدي كما هي العادة في المعابد الرومانية . وكانت على عمق ما يقارب ٨٢ سم عن السوية الحالية للصحن ، وينطبق ذلك بشكل خاص على الجانب الشرقي .

٢ ــ ارتفعت سوية الأرض في العهد الأموي بما يقارب ثلاثين سنتمتراً أي أنها كانت أخفض عما هي عليه الآن بخمسين سنتمتراً . وقد فرشت بالرخام الابيض ، بخلاف الحرم والاروقة التي يرجح أنها فرشت بالفسيفساء البيضاء البسيطة [١] ، والمعروف في الكنائس البيزنطية استخدام الفسيفساء في رصف أرض الأقسام المسقوفة من الكنيسة في أغلب الأحيان .

٣ ــ جدد بلاط الصحن في عهد الملك العادل الأيوبي في مطلع القرن السابع الهجري (١٣ م) واستعمل بدلاً من الرخام الأموي أحجار المباني القديمة وخاصة أحجار قنطرة الباب

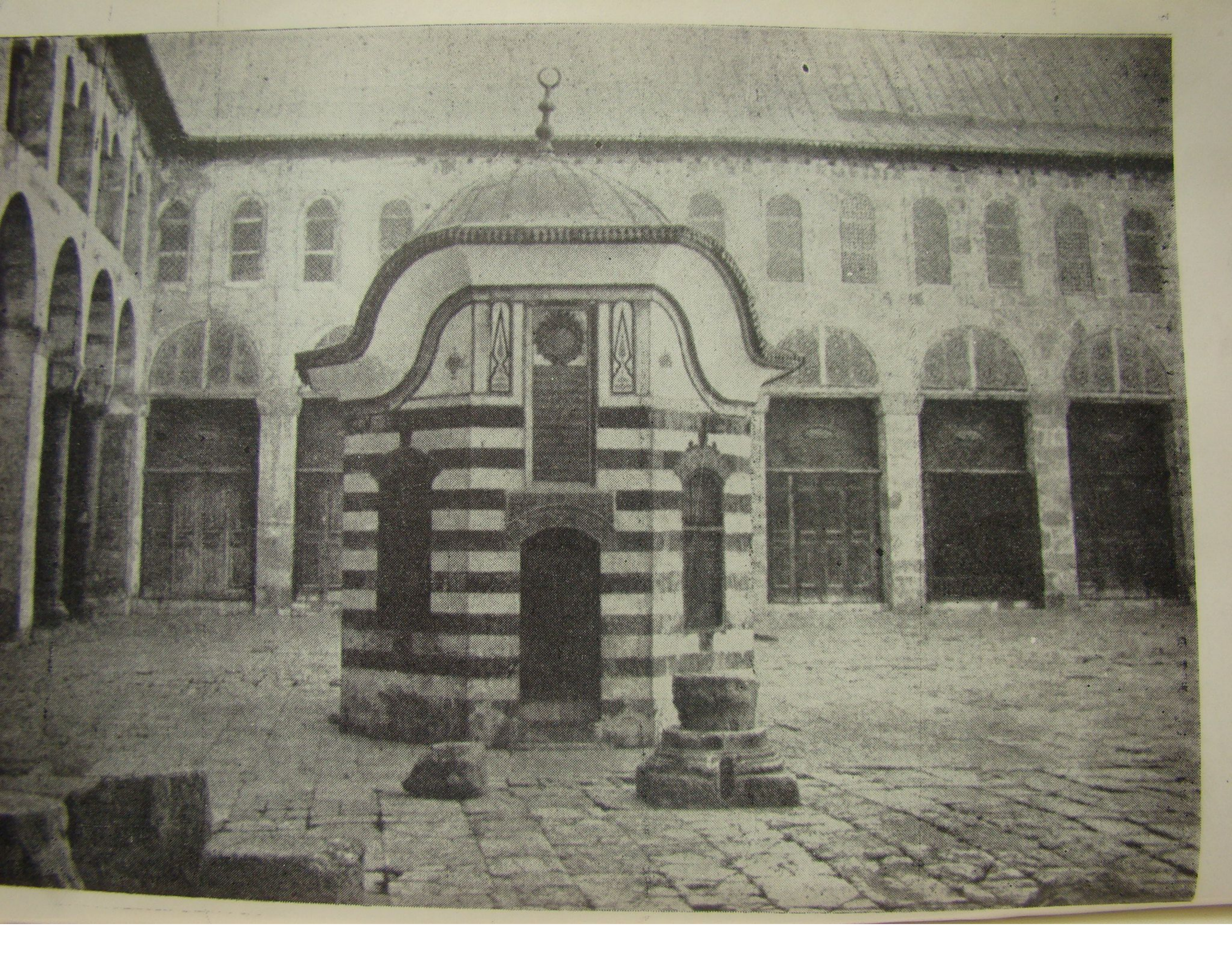
---

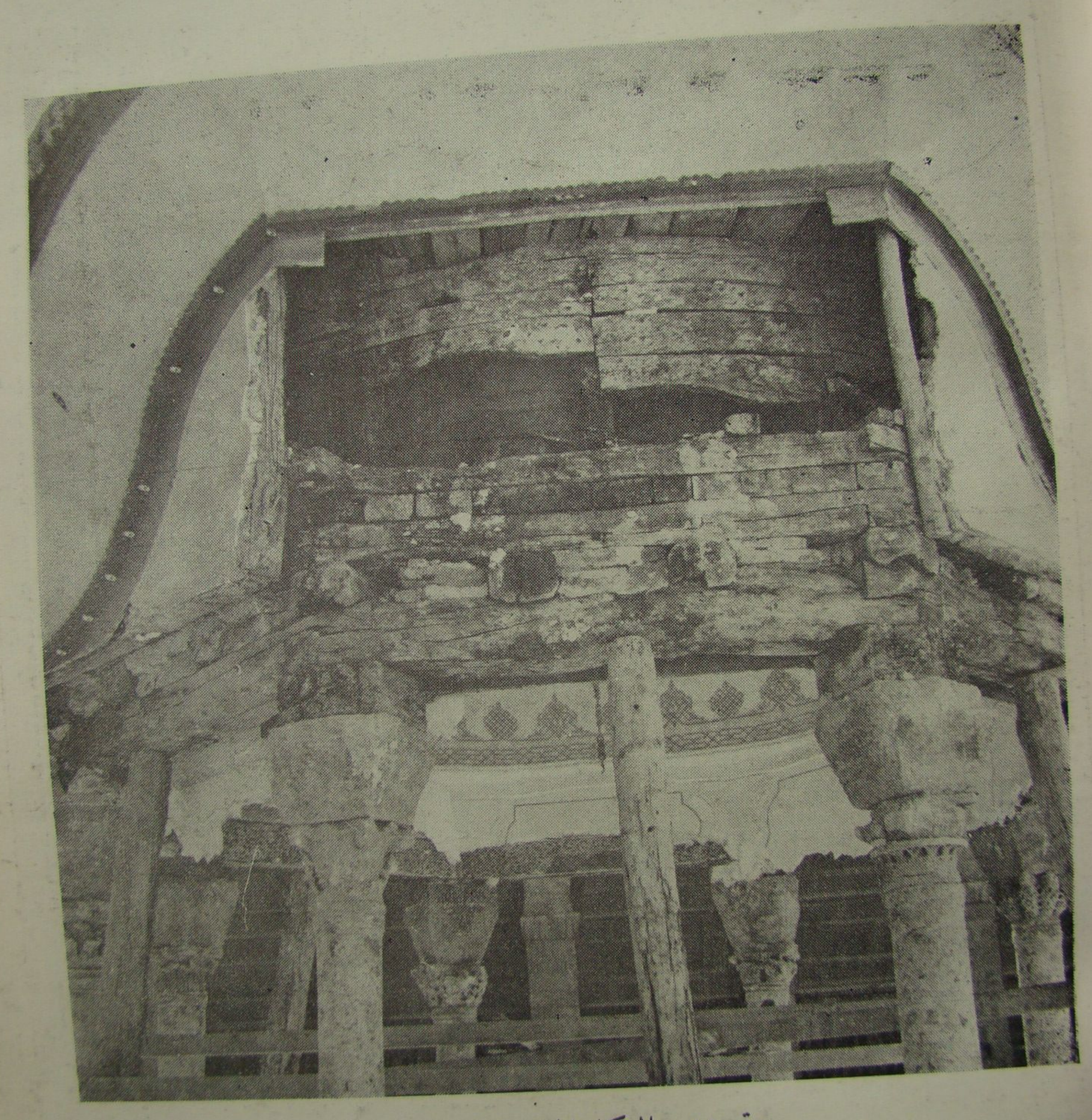
(١) أثناء طباعة هذا المقال تمكنا من اقناع مديرية الأوقاف التي شرعت في إصلاح رواق البلاط الغربي بالعودة الى السوية الاموية التي تنخفض كما ذكرنا حوالي أربعين سنتمتراً عن الوضع الحاضر للرواق وفعلاً فقد تمت أعمال الحفر باشرافنا وظهرت بشكل واضح هذه السوية التي قدرنا وجودها بالأسبار السابقة . وظهرت رقاع الفسيفساء في أماكن عديدة من الرواق وكانت تؤلف إطاراً يمتد على طول الرواق بعرض ١٠٢ سم ابتداءاً من قواعد الأعمدة . وكلها من النوع الذي وصفناه خلال الحديث عن السبر السابق . وأما ما تبقى من الأرض مما يلي اطار الفسيفساء فكان مرصوفاً بكسر الرخام وقد ظهرت رقعة واسعة منه تمتد حتى الجدار . وكانت عدسة الاسمنت تظهر هنا وهناك مكملة ما تخرب من الأرض . ولا شك أنها عملية ترميم طرأت على أرض الرواق (الصورة رقم ١٥) . ان عدم وجود أي فص من الفسيفساء خارج نطاق الاطار الذي اشرنا اليه يوحي لنا بأن الفسيفساء في الأصل لم تكن لتغطي سائر أرض الرواق . بل كان يحل محلها بلاط من الرخام أصلح بعد فساده بالكسر التي شاهدناها ، ولكن من المؤكد بأن الفسيفساء التي نشاهدها هي من النوع الأموي القديم حيث ما تزال أجزاء منها لاصقة برصف متقن بحذاء القاعدة الثانية من جهة الجنوب . أما المسافة الواقعة بين كل عمودين في الرواق فكانت مبلطة ببلاط رخامي أبيض من القطع الكبير ويؤلف ما يسمى اليوم بالشميرة التي تفصل بين الرواق والصحن . وقد عثرنا على واحدة منها بعد زوال الجلسة المحدثة فوقها . وهي في مستوى الفسيفساء وتنخفض عن الشميرة الحالية بحوالي أربع سنتمترات (الصورة رقم ١٧) .

وهكذا عاد الى الرواق اليوم مظهره الأصيل بعد أن وافق القائمون على أعمال البلاط على اعادته الى سوية الفسيفساء كما وافقونا على الإبقاء على رقاع من هذه الفسيفساء بين البلاط الجديد بعد تقويتها لتكون شواهد على حالة البلاط القديم .



رقم ٩ ـ البحرة

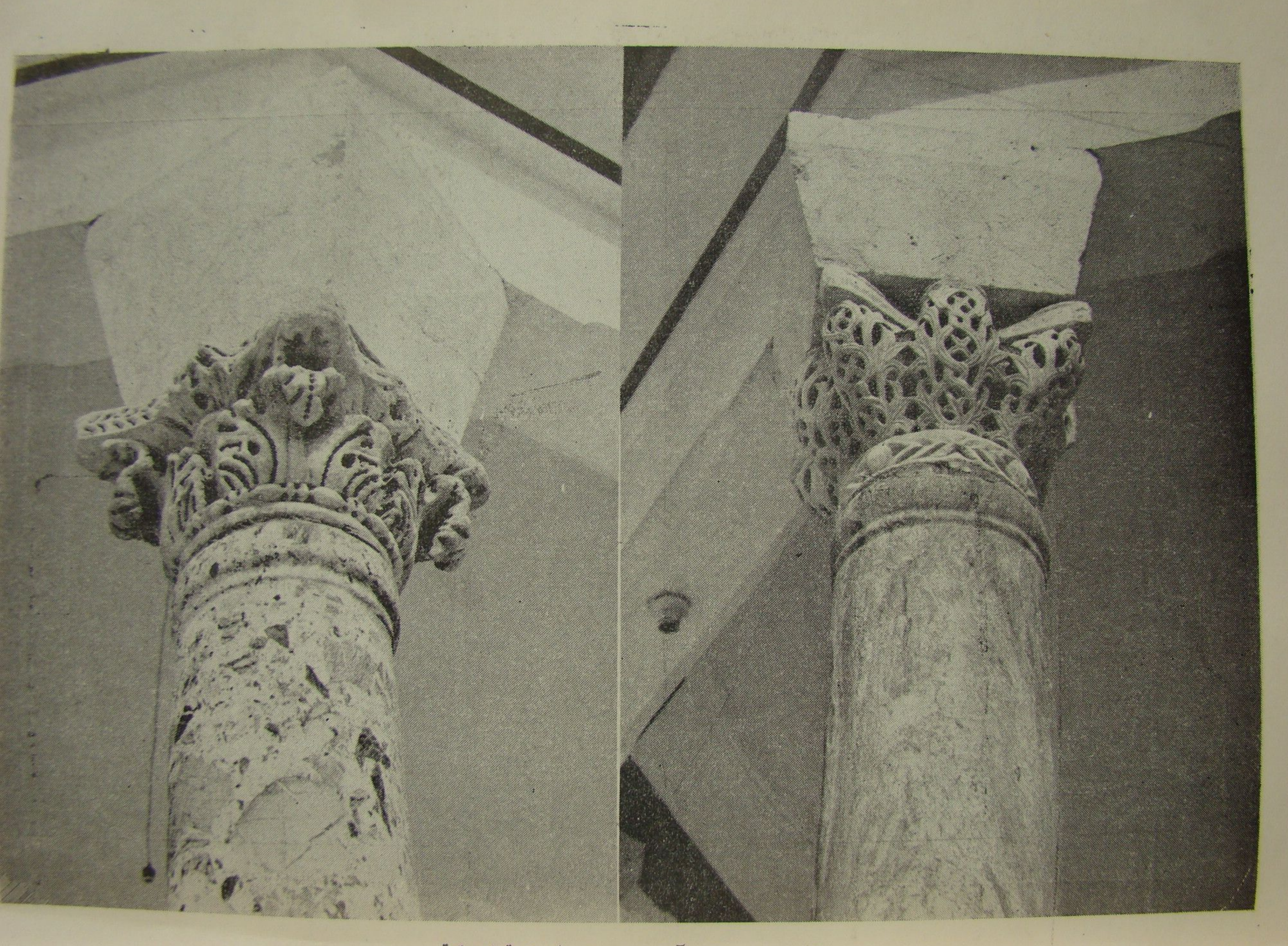




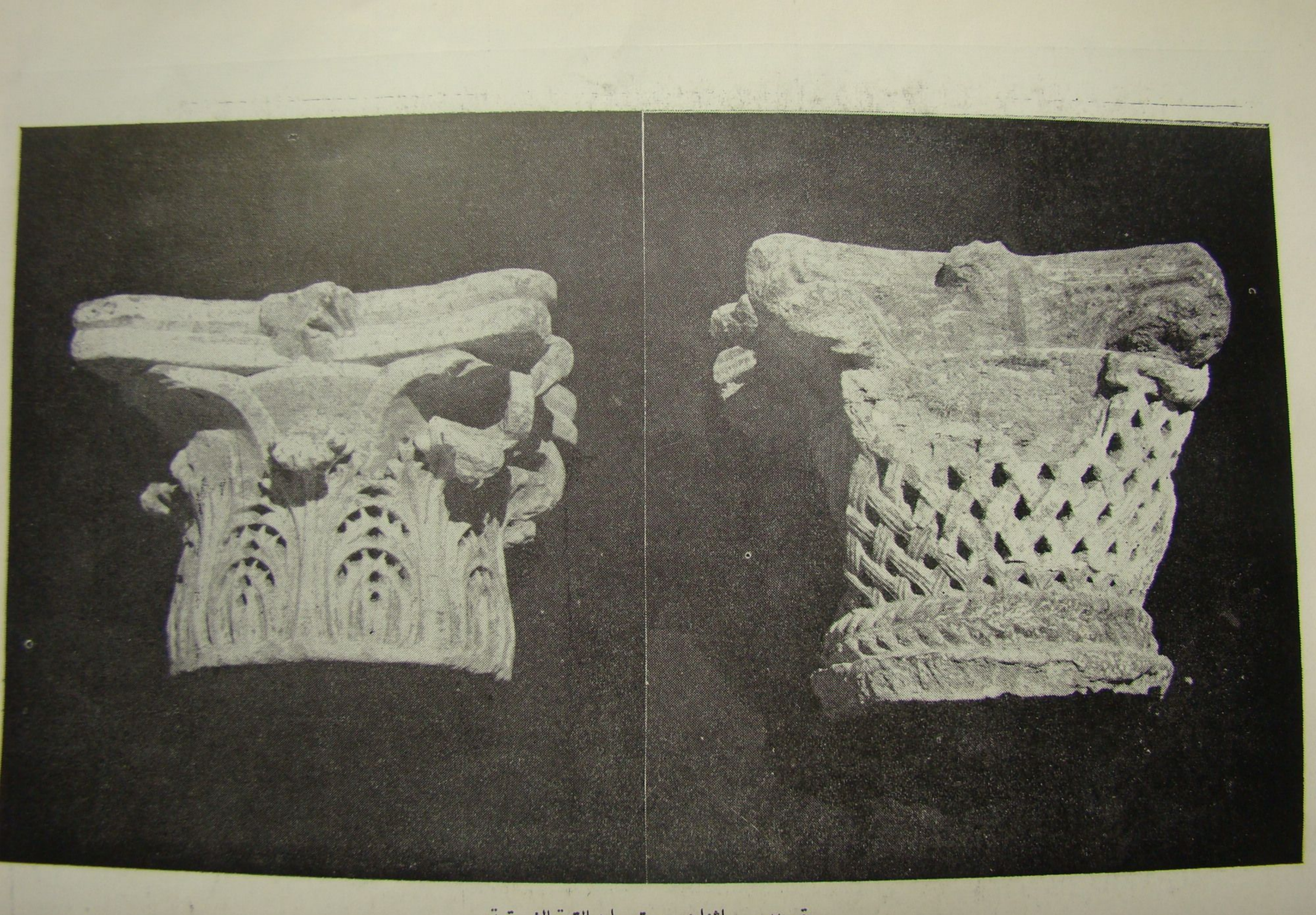
رقم ١١ — الهيكل الخشبي للقبة الشرقية



رقم ١٢ ـ اثنان من تيجان القبة الشرقيـــة



رقم ١٢ — اثنان آخران من تيجان القبة الشرقية



رقم ١٢ — اثنان من تيجان القبة الشرقية



رقم ١٣ ـ القبة الشرقية بعد الترميم



رقم ١٤ - أخشاب القبة الشرقية بعد كشفها وفي الأعلى احدى القطع الخشبية الثمان مكبرة

الشرقي التي نشرت إلى بلاطات . ولم تكن تكفي بالطبع لبلاط سائر الجامع فلجىء إلى جبل المزة الذي أطلق العمري على أحجاره كلمة المرمر .

جرت عملية اصلاح ثانية بعد خراب البلاط الأيوبي فارتفعت سوية الصحن حوالي عشرين سنتمتراً واستعمل الآجر هذه المرة في الصحن والأروقة على السواء . ولعل السبب في ذلك هو الاقتصاد في النفقات ، ونرجح أن يكون ذلك قد حدث في العهد المملوكي وربما في عام ٧٥٧ ﻫ / ١٣٥٦ م توفيقاً مع رواية ابن كثير التي تقدم الاشارة إليها ، أو أنه تم بعد عام ٨٠٣ ﻫ / ١٤٠٠ م السنة التي اجتاح فيها تيمرلنك دمشق وأحرق الجامع بكامله ، الأمر الذي تطلب اصلاح البلاط ، ولكننا مع ذلك لم نعثر على أي نص يشير إلى استعمال الآجر في تبليط الجامع ، ولم يشاهد ذلك الرحالة العرب والأجانب الذين زاروا الجامع بعد هذه الفترة . كما لم يشاهد هذا الآجر مستخدماً في أي من المباني التاريخية في سورية .

٥ — ثم كانت عملية الاصلاح الثالثة في العهد العثماني حوالي عام ١٣٠٠ ﻫ / ١٨٨٣ م أي قبل الحريق الأخير .

٦ — وأما الرواق الغربي فقد ارتفعت سويته ما بين ٤٥ و ٥٥ سم عن سويته الأصلية وأصبح أعلى من الصحن بحوالي أربعين سنتمتراً ، بينما دلت الدراسة على أنه في الأصل لم يكن يرتفع عن الصحن أكثر من عشر سنتمترات . كما هو الاسلوب المتبع في سائر المباني الاموية كقصر الحير الغربي وقصر جبل سيس وغيرهما .

القباب

تتوزع في أرجاء الصحن الواسع (١٢٢,٥ م طولاً و ٥٠ م عرضاً) .
ثلاث قباب الأولى غربية تعرف بقبة الخزنة والثانية شرقية تعرف بقبة الساعات والثالثة في الوسط وتضم بركة الماء ، وعمودان على جانبي هذه الأخيرة كانا يستخدمان للانارة أو البخور في المناسبات الهامة .

وسوف يتركز بحثنا بشكل خاص على القبة الشرقية التي ظهرت معالمها حديثاً بمناسبة ترميمها وكشف ما خفي من أجزائها وكانت مجهولة من قبل الباحثين وعلماء الآثار حتى سنوات مضت .
أما المنشآت الأخرى فسوف نتعرض لها بكلمة موجزة نلقي فيها بعض الأضواء على تاريخها الذي اختلف فيه المؤرخون .

لقد ثبت من مراجعة النصوص التاريخية أن الصحن في عهد الوليد كان خلواً من أي شيء ثم شيدت القبة الغربية حسب رأي أكثر المؤرخين القدماء في عهد الخليفة العباسي المهدي . شيدها الفضل بن صالح العباسي المتوفى عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م في أيام إمرته على دمشق ، روى ذلك ابن تغري بردي [١] والذهبي [٢] في كتاب العبر وعرفت منذ ذلك الوقت بقبة المال ثم اطلق الناس عليها قبة عائشة منذ القرن الثامن الهجري ذكر ذلك ابن كثير وابن بطوطة والبرزالي .

وقد شيدت منذ البدء على ثمانية عمد من الغرانيت لها تيجان كورانتية يعلوها ثمانية جسور من الحجارة ذات الزخارف الرومانية . وهي تخص أبنية رومانية أعيد استعمالها وبني فوق ذلك غرفة من ثمانية جدران بنيت وفق اسلوب بيزنطي من مداميك يتناوب فيها الحجر والآجر وكسيت بالفسيفساء الزجاجية من النوع المشاهد في أنحاء المسجد الأموي وجعل لها باب صغير من الحديد محكم الاقفال (الصورة رقم ٨) .

وزعم المؤرخ أبو البقاء الدمشقي وهو من القرن التاسع الهجري بأن الوليد هدم الصومعتين اللتين كانتا في زاويتي الجدار الشمالي واستعمل أحجارهما في بناء القبة الغربية والشرقية وقال : « ويقال أنه كان في الركنين الشماليين صومعتان كالمقابلة فهدمها الوليد وجُعل من بعض آلتها قبتان على أعمدة في صحن الجامع وجُعل فيهما خلوتان من فوق الأعمدة وأودع بهما كتب أوقاف هذا الجامع ومصاريفه ، ويقفل عليهما بالأقفال الحديد المانعة » [٣] . وقد سايره في هذا الزعم (كريزويل) .

إلا اننا لا نثق بصحته لأن أبا البقاء متأخر وقد انفرد في هذه الرواية . صحيح انه كان هناك صومعتان في الجانب الشمالي كالصومعتين اللتين بقيتا فى الجانب الجنوبي من الجامع اللتين تحملان المأذنتين الغربية والشرقيه ولكن هذين البرجين لا يحتويان على عمد أو تيجان كالتي في قبة الخزنة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد أجمع المؤرخون على أن بناء قبة الخزنه ليس من عمل الوليد بل من عمل الوالي العباسي الفضل بن صالح كما ذكرنا . كما أننا

(١) النجوم الزاهرة ، ٢ / ٢٧٠ . طبعة دار الكتب بالقاهرة ، ١٩٤٢
(٢) الدارس في تاريخ المدارس ، عبد القادر النعيمي ، طبعة المجمع العلمي بدمشق ٢/٣٨٦
(٣) نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٤١ .

نستبعد قصة انهدامها في زلزال عام ١١٧٣ هـ كما روى الطنطاوي في كتابه عن الجامع الأموي صفحة ٥٦ ، لأن الفسيفساء القديمة ما تزال لاصقة بجدرانها وكذلك فن البنـــاء القديم ما يزال ظاهراً في جميع أجزائها .

والشيء الغريب في هذه القبة هو منظر أعمدتها الغائر في أرض الصحن مما جعل العالم الأثري (فاتزنكر) يحسب بأن قواعد الأعمدة بنيت تحت البلاط الذي ارتفعت سويته حوالى ٦٢ سم بسبب التجديد الذي طرأ عليه في عام ٦٠٢ هـ [١] وهذا الرأي يتعارض بالطبع مع الدراسة التي وضعناها فيما تقدم عن الصحن ، ومـــع السبر الذي قام به المهندس الفرنسي (ايكوشار) عام ١٩٤١ والذي أبان بأن هذه الأعمدة موضوعة على عمق ٢٣٠ سم وأن أكثرها لا قواعد له . ومعنى ذلك أن هذه الأعمدة غرست في أرض الصحن هكذا منذ بنائها ، وقد اختفى جزء طفيف منها بسبب تغير مستوى الصحن . ويحسن أن نشير بأن فن العمارة في القرون الأولى للاسلام عرف هـــذا الاستعمال ، وشوهد مطبقاً في كثير من المساجد بدافع الاستفادة من حرم الجامع للتدريس قبل نشوء المدارس . ونضرب على ذلك مثلاً جامع قرطبة الذي شيدت عمده بقواعد في عهده الأول ثم جرى توسعته بدون قواعد في عهد الخليفة عبد الرحمن الثاني ، الذي أمر بتوسعة الجامع في عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م . وأخفيت في ذلك الوقت قواعد الأعمدة السابقة برفع سوية الأرض .

أما الفسيفساء التي تكسو جدران القبة والتي ما يزال جانب منها باقياً ، فهي قديمة ، وأول من وصفها لنا المقدسي في القرن العاشر الميلادي . ولكن العالم الأثري (سوفاجه) ينسب بعضها إلى عمل القرن الثالث عشر والبعض الآخر إلى القرن الرابع عشر الميلاديين ولعله يريد بذلك ترميماً طرأ على الأصل في هذين العهدين . إلا أننا نشك في حدوث مثل هـــذا الترميم نظراً لتجلي الأسلوب الأصيل بشكل واضح في هذه الفسيفساء .

أما القبة الوسطى التي تحتوي على فوارة الماء فقد شيدت عام ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م . روى ذلك ابن عساكر [٢]

(١) Damascus, I, P. 134 .

(٢) تاريخ دمشق – تحقيق المنجد ، ٢/٣٢ .

ونقل عنه ذلك كل من أتى بعده من المؤرخين ، ووصفها ابن جبير في القرن السادس الهجري فقال : « وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق أبدع الصاق قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام وتحتها شباك حديد مستدير ، وفي وسطه أنبوب من الصُفر (يعني النحاس) يمج الماء إلى علو يسمونه قفص الماء » [١] ووصفها ابن بطوطة في القرن الثامن بما يشبه وصف ابن جبير ، وأطلق عليها العامة في أيام ابن كثير قبة أبي نواس [٢] .

وزعم فاتزنكر أنها رممت عام ٦٠٧ هـ نقلاً عن المؤرخ أبي شامة ولكن غاب عنه أن المقصود بالفوارة التي أشار إليها نص أبي شامة [٣] انمـــا هي فوارة جيرون الكائنة خارج الجامع الأموي عند بابه الشرقي .

على أنه لم يبق من فوارة الجامع القديمة سوى أعمدتها الأربعة وعناصر من أقواسها الرخامية المستديرة التي تتفق مع ما أورده بشأنها ابن عساكر وابن جبير . وكل ما بقي من هندستها وزخارفها وأكثر عناصرها حديث عثماني لا يمت إلى الأصل بصلة ، فالبحرة مثمنة يحيط بها شادروان مربع يقوم على ثمانية أقواس في كل جهة قوسان مدببان حملت على ثمانية أعمدة (الصورة رقم ٩) وقد عمرها والي الشام عثمان باشا عام ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م [٤] . ويبدو أن القبة القديمة تهدمت اثر زلزال ١١٧٣ هـ الذي أطاح بجوانب عديدة من الجامع .

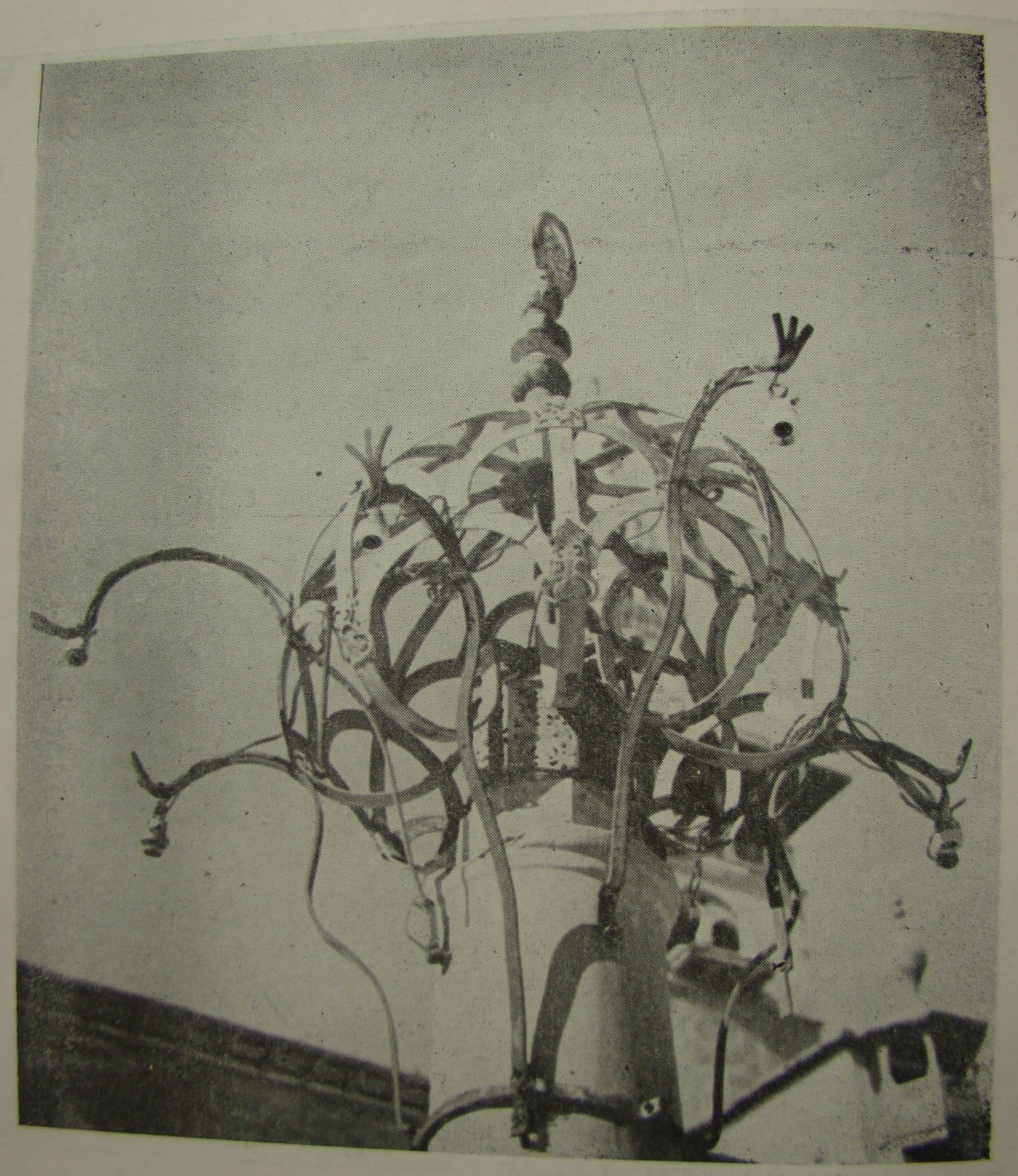
القبة الشرقية

لم نكن نعرف عن هذه القبة قبل عام ١٩٥٨ سوى ذلك البناء ذي الطراز العثماني المؤلف من ثمانية جدران والمعروف بقبة الساعات (الصورة رقم ١٠) ، وكانت هذه الجدران قبل إزالتها تتألف من مداميك صغيرة الحجارة يتناوب فيها اللونين الأبيض والأسود يعلوها رفرف وقبة من الرصاص وعلى بابها لوحة رخامية عليها كتابة باللغـــة التركية تؤرخ بناءها في عهد السلطان محمود عام ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م وعليها ترة السلطان .

ولقد شاءت الظروف أن تنكشف حقيقـة هـــذه الآبدة الصغيرة وتظهر أصالتهـا

---

(١) الرحلة ص ٢٥٥ طبعة الدكتور حسين نصار ١٩٥٥ .
(٢) البداية والنهاية ، ٩٧/١٢ .
(٣) تراجم رجال القرن السادس والسابع ، ص ٧٦ .
(٤) ولاة دمشق في العهد العثماني ، من منشورات صلاح المنجد ص ٨٣ .



رقم ١٥ – عمود الإسراج



رقم ١٦ — ارض الرواق الغربي بعد كشفها



رقم ١٧ — العتبة الرخامية القديمة (الشعيرة)

حين تصدعت جدرانها في عام ١٩٥٨ ، وعمدت مديرية الأوقاف إلى فك جانب من جدرانها من أجل تجديدها فوقع نظرنا على ما كانت تخفيه في طياتها من أعمدة وتيجان جميلة وأخشاب مزخرفة ، الا أن وضعها المتخلع جعل المسؤولين يميلون إلى إعادة تطويقها بالجدران . وبذلنا جهدنا لاقناعهم بالتخلي عن هذا الرأي وابعاد الجدران نهائياً وترميم القبة واعادتها إلى سابق عهدها يوم بنيت قبل قرون .

وفعلاً فقد فككت القبة جميعها وأبعدت عنها العناصر العثمانية ورممت . وبدت طاسة القبة خلال أعمال الترميم مصنوعة من هيكل خشبي كما كانت تبنى غالب القباب في العهد الأيوبي (انظر الصورة رقم ١١) . كما ظهرت تحت كلستها الداخلية أخشاب رائعة الحفر تكسو المثمن المحمول فوق الأعمدة المصنوع من جسور الخشب الغليظة . أما الأعمدة الرخامية الثمانية فكان نصفها أخضراً موشحاً بالبياض مرقطاً والنصف الآخر أحمر سماقياً وقد رتبت بالتناوب . وكان يعلوها تيجان رائعة الصنع من الرخام الأبيض ليس فيها تاج يشبه الآخر من حيث الزخارف ويبدو من صناعتها أنها من العهد البيزنطي ، أعيد استعمالها ، (الصورة رقم ١٢) وقد جدد اثنان منها فنقلنا القديمين إلى المتحف الوطني ، وتعتبر هذه التيجان الثمانية مجموعة نادرة من حيث قيمتها الأثرية .

ويعلو التيجان أحجار هرمية (Sommier) تزيد في ارتفاع القبة (يبلغ ارتفاعها حتى الجسور ٣،٣٦ م) ، وللأعمدة قواعد من الرخام الأبيض من طراز قديم أيضاً (كلاسيكي) (الصورة رقم ١٣) .

أما الأخشاب المزخرفة فهي العنصر الزخرفي العربي الوحيد وكانت تكسو المثمن الخشبي من الداخل وتتألف من فروع نباتية ملتفة تخرج من كؤوس منحوتة في زوايا المثمن ، والأوراق بعضها ثلاثي الفصوص والبعض خماسي وكلها ذات عروق وتجاويف دقيقة ، وأسلوب النحت يبلغ هنا حد الاتقان ، بحيث لا يشبه الأسلوب الفاطمي ، العصر الذي بنيت فيه القبة كما سنرى ، فأسلوب الحفر أكثر نعومة ودقة ومقطع الفروع هنا دائري بينما هناك مشطوف الجوانب مستوي السطح ولا شك أن هـذه الزخارف تمثل المدرسة السورية لنحت الزخارف النباتية التي ظهرت في الخشب والحجر منذ العصر البيزنطي ، وتطورت وازدهرت في العهود العربية . وإذا ما قارنا هذه الأخشاب بما هو معروف في سوريا من نماذج قديمة فانا لا نراها تشبه تلك التي ترجع الى القرن الخامس ، كضريح السيدة سكينة مثلاً الكائن في مقبرة الباب الصغيرة بدمشق ، أو حاجز

جامع المصلّى بدمشق المنقول إلى المتحف الوطني ، وانما نراها أكثر شبهاً بأخشاب القرن السادس كمحراب جامع الحنابلة في دمشق ومحراب السيدة رقية في القاهرة .

ومما يلفت النظر في هذه الأخشاب وجود مكان أملس خال من الزخارف ضمن أطار نصفي يشبه الاطارات المخصصة للكتابة (Cartouche) (الصورة رقم ١٤) .

والآن بعد أن استعرضنا بشكل سريع خصائص هذه القبة القديمة . لنعد إلى المصادر التاريخية القديمة لنر لديها ما يروي فضولنا العلمي . خاصة وأن علماء الآثار المحدثين لم تتح لهم الفرصة لدراستها من قبل وكل ما عرفوه عنها هو ذلك البناء العثماني المتأخر ذى الثمانية جدران ، فقال عنها سوفاجه ، هي بناء مثمن من طراز عثماني من القرن التاسع عشر حل محل قبة شبيهة بقية الخزنة [١] . وأما كريزويل فيكتفي بما رواه ابن جبير عنها وينقل عن مؤرخ من القرن التاسع يعرف بأبي البقاء الدمشقي قوله بأنها بنيت عام ١٦٠ هـ ، وكانت تسمى بقبة عائشة . وسترى أن هذا الزعم خاطىء والقول ينطبق بكامله على قبة الخزنة . وأضاف كريزويل وهي اليوم في مكان البناء المثمن الذي يبدو من سقفه بأنه من النصف الأول من القرن التاسع عشر [٢] .

وقال عنها مؤرخ دمشقي حديث هو تقي الدين الحصني بعد أن أورد رواية ابن جبير : « وقد تدور البناء عليها اليوم وصارت شبابيك وضع بها الساعات وصارت مقراً للتوقيت ، قيل إنها بنيت عام ١٦٠ هـ ، أيام المهدي وجددت في عهد السلطان محمود سنة ١٢٢٤ هـ [٣] .

والصحيح في التاريخ الأخير هو ١٢٣٤هـ كما هو مثبت على اللوحة الرخامية التى أتينا على ذكرها. أما تاريخ بنائها الأول فنشك في صحته لأن المؤرخين القدماء يعطوننا تاريخاً آخر لبنائها . ذكر ابن كثير وهو من مؤرخي القرن الثامن الهجري : « وأما القبة الشرقية التي على باب مسجد علي فيقال إنها بنيت في زمن الحاكم العبيدي في حدود سنة ٤٠٠ هـ [٤] » .

---

(١) Momments historique de Damas. P. 16 , Beirouth 1932

(٢) Creswell, Eurly muslim Architectur, I, 144

(٣) منتخبات التواريخ بدمشق ١٠١٨/٣ .

(٤) البداية والنهاية ٩٧/١٢ .

وأيد البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ ما رواه ابن كثير إلا انه جعل تاريخ البناء ٤٠٥هـ/١٠١٥م وأضاف قوله : « وكتب عليها اسمه واسم الأئمة الاثني عشر »(١) . ولعل في هذا القول الأخير ما يفسر لنا وجود الاطارات الكتابية الثمانية التي مر ذكرها والموجودة على الأخشاب المزخرفة فهل كانت تحمل أسماء الأئمة ثم أزيلت بعد انقلاب عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م الذي قضى على الحكم الفاطمي في الشام وأحل المذهب السنى بدلاً من المذهب الشيعي .

ومما يجعلنا نأخذ جانب هتين الروايتين من حيث تأريخ بناء القبة هو أن المقدسي المتوفى عام ٣٨٠ هـ لدى وصفه لصحن الجامع لم يذكر هذه القبة فقال : « وعلى الميمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد ... الخ »(٢) .

مما يدل على انها لم تكن موجودة في أيام المقدسي ، ومن المرجح ان زيارته للجامع تمت قبيل عام ٣٦٩ هـ السنة التي بنيت فيها قبة القوارة في وسط الصحن والتي لم يرها المقدسي ايضاً .

هذه القبة التي بنيت اذاً في مطلع القرن الخامس الهجري قال عنها ابن جبير ، وهو أقدم من وصفها : « بأنها قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة القبة الكبيرة ولكن أصغر منها »(٣) .

وكذلك قال عنها ابن بطوطة في القرن الثامن إلا انه زودنا بأن اسمها يومئذ (قبة زين العابدين) .

وهكذا لم يحدثنا أحد من المؤرخين عن الغرض من بنائها أو فيم استخدمت له ، ولكننا لانعتقد بأنها كانت تحتوي على غرفة مثمنة فوق الأعمدة كما هو الحال في قبة الخزنة وكما زعم أبو البقاء في زاويته التي أوردناها لدى الحديث عن قبة الخزنة ، وان الشبه الذي عقده بينهما كل من ابن جبير وابن بطوطة محصور في الأعمدة الثمانيـــة فقط . كما نستبعد أن تكون بنيت فوق فسقية أو فوارة لأن السبور التي أجريت حولها وتحتها أظهرت لنا قاعدة حجرية مثمنة(٤) بنيت فوق بلاط الصحن القديم وترتفع عنه حوالي نصف متر وداخلها غير متقن النحت مما لا يتفق مع وجود حوض للماء وقد عثر على ترخيم في أطرافها الخارجية . وقطر هذه القاعدة يبلغ ٤,٨٣ متراً ، وسماكة جدرانها ٦٠ سم. ونستنتج من ذلك ان القبة كانت كمقصورة للجلوس تحتها ، وقد روى لنا ابن كثير حادثة وقعت عام ٦٠٧ هـ تشير إلى جلوس والي المدينة والأعيان تحتها بين حشد كبير من المستمعين غص بهم

(١) خطط الشام ، كرد علي ، ٥/٢٧٥ .
(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ، ص ١٥٧ .
(٣) الرحلة ص ٢٥٥ .
(٤) قال عنها الرحالة بوكوك انها حوض للتعميد مثمن الأضلاع تقوم عليـــه ثماني دعامات مربعة : Watzinger Damascus I, 155 وقد زار دمشق عام ١٧٣٨ ووضع مخططاً للجامع في كتابه : Description of the east, II .

صحن الجامع لسماع دروس عالم شهير هو سبط ابن الجوزي الذي كان يتخذ مكانه الى سارية قريبة من مشهد علي في الرواق الشرقي [١] .

ولكنها منذ عام ١٢٣٤ هـ تحولت الى غرفة مثمنة وأصبح بالامكان الاستفادة منها وغدت مقراً لساعات الجامع وغدا اسمها قبة الساعات أو التوقيت ولعل الدافع لهذا العمل كان لحماية القبة من السقوط بسبب ضعف بنيتها أو لغرض الاستفادة منها ، فتغير بذلك مظهرها وحجبت عمدها كلياً لأنها أحيطت في الداخل بجدران من اللبن سمكها ٤٠ سم وكسيت من الخارج بجدران من الحجر سمكها ١٣ سم بنيت فوق أرض الصحن مباشرة وكان من الآجر كما سبق شرحه في موضوع البلاط من هذا المقال ، كما طليت الأخشاب المزخرفة بكلسة بيضاء ، واحيطت برفرف من الرصاص ومهرت بخاتم السلطان محمود وهكذا طبعت بطابع العصر العثماني في كل مظاهرها ، كما تشير إلى ذلك الصورة القديمه (رقم ١٠) التي نقلناها من كتاب العالم النمسوي (فاتزنگر) .

ويحسن في نهاية هذا المقال أن لا ننسى الإشارة إلى وجود عمودين في الصحن مفردين لهما شأن خاص (الصورة رقم ١٥) يقع أحدهما عن يمين البركة والآخر عن شمالها وقد غرسا في الصحن بدون قواعد كما هو الشأن في أعمدة قبة الخزنة ويعلوها تاج من النحاس المخرم بالزخارف تحيط بهما هالة من النحاس المجدول كالثريا من العصر نفسه الذي نقدر أن يكون من القرون الأولى لتاريخ الجامع ، حيث ينطبق عليهما الوصف الذي قدمه ابن جبير لدى زيارته للجامع في عام ٥٨٠ هـ قال : « وفي الصحن بين القباب عمودان متباعدان يسيراً لهما رأسان من الصفر (النحاس) مستطيلان مشرجيات (لعله يعنى متشابهان) وقد خرما أحسن تخريم ، يسرجان ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان »[٢] ويرى أبو البقاء الدمشقي وهو من مؤرخي القرن التاسع الهجري انهما من عمل الوليد فيقول : « واصطنع في صحنه صفة بجامر على أعمدة برسم البخور ووكل بذلك خدمة لا يفترون ليلاً ونهاراً »[٣] .

عبد القادر الريحاوي

---

(١) البداية والنهاية ٥٨/١٣ .

(٢) الرحلة ص ٢٦٠ .

(٣) نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٣٩ .